مداخلة الأب البروفسور جورج حبيقة

رئيس جامعة الروح القدس الكسليك

في المؤتمر الأكاديمي الأول حول الفلسفة اللبنانية

الكسليك، في ٢٠ شباط ٢٠١٩

يطيب لي أن أرحّب بكم فردا فردا في جامعة الروح والعقل، في جامعة الروح القدس الكسليك، وبخاصة في رحاب "كرسي كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانية"، الذي كان لي شرف إطلاقه في السابع عشر من تشرين الثاني سنة الفين وسبع عشرة.

أن يتفلسف الانسان، فهذا أمر طوعي وبديهي. فالمصطلح الألماني الشهير لهذه العملية التذهّنية التلقائية، Weltanschauung، والذي فرض ذاته على جميع اللغات، إذ تتعذر ترجمته، يزخر بالمدلولات التالية: إن العالم الوحيد، Die Welt، الذي نختبر فيه سرّ الوجود وسرّ الحياة إنما هو عالم المحسوسات. فيه ومنه ننطلق في مغامرة المعرفة. ومنه نقلع إلى مساحات الروح. هو قدرنا المحتوم في تدرجنا الإدراكي وفي ارتقائنا الحلزوني في مدار المعارف إلى اللاّمتناهيات. لا شيء يقوى على إعتاقنا منه أو على إخراجنا منه ما دمنا في ضيافة الحياة. والفعلُ الألماني anschauen يفيد، في موكب المعاني الذي يقطره وراءه، أن الانسان يقارب كلّ شيء في الوجود عبر طبقات متلاصقة، تزداد عمقا وتعقيدا كلما توغّلنا بعيدا عن الطبقة القشريّة الخارجية. هذه الأخيرة هي أشبه بالقناع الخارجي الخادعِ والأكثرِ سطحية. من هنا الفعلُ الألماني anschauen يشدّد على إلزامية رؤية جميع المسائل والأمور من الداخل، من الجوف، على إلزامية الغوص إلى المطاوي الأكثر حميميّة التي لا يراها إلا المتبحّر، إلا العاشقُ العنيد للمدارك الصعبة والعصيّة على المقاربات السطحيّة، وفي وجيز الكلام إلا الفيلسوفُ في معناه الواسع.

إن هذه الخاصيّة الأساسية في بناء الفكر الفلسفي، والتي تقوم على رؤيةِ المسائل من الداخل والالتزامِ بما نرى منها وفيها، إنما هي متّصلةٌ بشكل مباشِر بمصطلح آخر، لا يقلّ أهميةً عنها، يحدِّد الانسانَ في اللغة الألمانية، Dasein، "الكائن ـ هنا". إن الانتماء الوجودي الأساسي ليس خاضعا لمشيئة المرء. من منّا اختار أباه أو أمه، أو وطنه أو لغته أو حتى دينه؟ ككائن ـ هنا، أعي ذاتي مرميا في معادلة أنطولوجية لا دور لي فيها، أتلقّاها وأتبنّاها لأنطلق منها لتحقيق الذات حرّا في مسالك الحياة المتشعّبة والمتعدّدة حتى اللاّنهاية. من الكائن ـ هنا ينطلق كلُّ شيء، وإليه يعود كلُّ شيء. نستخلص مما سبق أن هناك استحالة لبناء فكر فلسفي، إي بتعبير آخر، لرؤية المسائل والأمور من الداخل والالتزام بها، خارج الكائن ـ هنا، خارج إحداثيات الزمن والمكان التي تؤطر كياننا البشري. عندها نفقه بعمق مضمون رسالة أفلاطون السابعة حيث يقول: " في سالف الزمان، وأنا في سن الشباب، كنت أشعر ما يشعر به العديد من الناس. كنت أخطّط بشغفٍ لمقاربة السياسة من دون أي إبطاء، يوم سأبدأ بتدبّر أموري". هو أولا وأخيرا ابن أثينا. انطلق من يومياته، من أحلامه، من أوجاعه، من خيبات أمله، من انتظاراته. إن منظومته الفلسفية لم تلد من رحم اللاّمكان واللاّزمان، من رحم التجريد المطلق. إنها فلسفة الكائن ـ هنا للبشريّة جمعاء.

لم ينخرط أفلاطون في الفكر الفلسفي إلاّ خدمة للسياسة، بحسب المصطلح اليوناني Polis، أي فن إدارة شؤون المدينة وفق متطلّبات النظرة الماورائيّة للوجود. والأمر الذي شحذ همّته ليندفع بدون كلل في هكذا مخطّط إنما هو المصير المأساوي الذي تعرّض له أستاذه ومعلّمه الأكبر سقراط، عندما اتّهمه أعوان المدينة، زيفاً وبهتاناً، بالفساد ودفعوه بالتالي إلى احتساء السّم، قتلاً لسمّ انتقاداته ونظريّاته التي كانت تقضّ مضجع المتسلّطين ظلماً وجهلاً على البلاد والعباد. كانت فلسفته حاجةً ماسة لمدينة أثينا، عاصمة الفكر والعلوم والثقافة، المترنحة بين رواسب ديمقرطية بريكليس وديكتاتورية الحكّام الجدد، وفي الوقت عينه رسالةً للبشرية جمعاء في ترحالها الدائم صوب غدٍ أكثر خيرا وأكثر حقيقة وأكثر جمالا.

إنّ مسار كمال يوسف الحاج الإنساني والفلسفي والسياسي والوطني يتقاطع بشكل كامل مع مسار سقراط وأفلاطون معاً. من "الكائن ـ هنا" استولد فلسفتَه اللبنانية خدمة للبشرية جمعاء. من الوجع اللبناني

وهواجسه وأحلامه، تذهّن نظاما فلسفيا لبشرية متآلفة في الذاتيّات المغايرة. ومصداقا على ذلك النظرة الاستثنائية التي حضن بها البابا القديس يوحنا بولس الثاني رسوليةَ الكيانِ اللبناني، عندما وضع بلدَ الأرز على مِنصّة المرجعية العالمية للدول غير المتجانسة والمتعدِّدة ثقافيا ودينيا وحضاريا. وما يلفت القارئَ في تصفُّح الفلسفة اللبنانية بريشة كمال الحاج، أن ليس هناك من انفصامٍ بين الفكر والكفاح، بين الفلسفة والسياسة، بين الرؤية الملتزمة للوجود والكائن ـ هنا. يقول كمال الحاج في فلسفة الميثاق الوطني: "حيث تنتهي السياسة تبتدئ الفلسفة. والعكس بالعكس. حيث تنتهي الفلسفة تبتدئ السياسة. أما قيل بأن السياسة هي فلسفة واقعية، وبأن الفلسفة هي سياسة مثالية؟"[٧/ميثاق، ٣٧] الفلسفة والسياسة تتداخلان وتتكاملان كمحرّك أحد لمجرى التاريخ نحو مصبّه الاسكاتولوجي. ويتابع في هذا الصدد: "لا قيمة لقيم لا يناضل الإنسان في هذه الدنيا من أجل تحقيقها. إنّ القيم لا تتحقق بمعزل عن الإنسان. ذلك أن الله ما أوجدها لتظلّ عالقة في عالم المثل. لقد خلقها من لدنه كي تتحقق في دنيا الآدميين... في المجتمع البشري. وتحقيقها يستلزم انخراطاً بين الناس، ونضالاً، وحرماناً، واستشهاداً... أعني سخاء الدّم" (٧/معترك).

لم يأتِ الحاج إلى الفلسفة إلا خدمة للسياسة في مضامينها اليونانيّة، أي خدمة لمدينة الإنسان في تعددية أبعاده الأنطولوجيّة، التي تدفعه إلى أن يحقّق ذاته في أرضٍ، ويلتصق بذاكرتها الحضاريّة والثقافيّة، ويقلع منها إلى الوجود الماورائي في وحدة التّكامل الكياني. الانتماء ركيزة أساسية في جوهر وجود الإنسان الزمكاني وفي طريقه إلى الوجود الآخر. من هنا جاءت فلسفة كمال الحاج لصيقة بالكيان اللبناني كفكرة فلسفية سياسية وجودية، متطوّرة وهادفة، داخل معادلة الزمن.

في الفلسفاتِ القديمةِ، وبخاصّة اليونانيّة منها، يستوقفُنا التشديدُ البيّنُ على أنَّ الزمنَ إنما هو عامل تهديمٍ وتقويضٍ للكيان الإنساني والمجتمعات والثقافات، أكثرَ منه عامل تنميةٍ وإنضاجٍ لهذه الطاقات كافّة. يستندُ هذا المنحى، التحليلي في معطياتِهِ، إلى جوهرِ الزمنِ بحدّ ذاته. فالماضي هو ما انقضى فعلاً، والمستقبلُ هو ما لم يحدث بعد، والحاضرُ هو نقطةُ عبورِ المستقبلِ إلى رحابِ الماضي المندثر.

هذا هو حاضرُ الإنسانِ والكائنات جميعها، حاضرٌ هاربٌ بين دفَّتَي الماضي والمستقبل. وهكذا يتبدّى لنا بشكلٍ لا يداخلُه اللبسُ أنَّ الثابتَ في حاضرِ الإنسانِ هو التغييرُ، والواضحَ في مستقبله هو الغموضُ. وفي حركيّة هذا الوجودِ وتبدليّته وضبابيّته، يسعى الإنسانُ، ذلك الكائنُ اللُّغز، العظيمُ والهشُّ

في آنٍ، الملقى في جدليّةٍ حياتيّةٍ لم يخترها ولم يكن هو في أصلها، بل أتته عبر الآخر، إلى تحقيقِ ذاتِه ضمنَ استحقاقاتٍ تتدرّجُ متفاوتةً في الأهميّة، حتى تصبَّ مجتمعةً في استحقاقِ الموت الذي فيه يتحوّلُ المستقبلُ إلى ماضٍ أبديّ. من خلالِ معادلة الماضي والحاضر والمستقبل، ينبغي على الإنسان أن ينمو كمشروعٍ حياتي مشرّعٍ على كلّ الاحتمالات، تسيِّجه المخاطر، نَعرفُ أين يبتدئ ولا ندري كيف، وأين، ومتى، يكتملُ أو يسقط. ومن سمات هذا الكيان البشري الأساسية أنّه مسكونٌ أبداً بالقلق، يُفتّشُ من دونِ هوادة عن حقيقةِ ذاته وحقيقة الكون المرمي فيه. وكلّما ظنَّ أنّه اقترب منها، اكتشفَ أنَّ ظنَّه هو ضربٌ من التوغّلِ في الأوهام. من هذه المعطيات الأساسيّة في جوهرِ الإنسان ومقوّمات الزمن، أنطلقُ في مقاربتي لمكانة الدين في الفلسفة اللبنانية كما فقهها وصاغها كمال الحاج في مؤلّفاته كافة وبخاصة في فلسفة الميثاق الوطني.

في سياق تبيان التصاق البعد الديني بحميمية الوعي لدى الإنسان، يقول كمال الحاج: "أجل ... الدين جوهر. أي أنه وجد مع الإنسان منذ أن سوي الإنسان إنسانا. والتاريخ دليل. إذا نحن استعرضنا الشعوب، القديمة منها والحديثة، رأيناها تماشي الدين منذ البدء أكثر وقبل أن تماشي أية قيمة أخرى من قيم الحضارة" [٧/ميثاق ٤٥]. بالفعل، إن ظاهرةَ الدين وتجاوزَ عالم المحسوسات وتذهُّنَ وجودٍ آخر هو في أصل عالمنا وفي مصبه، جميع هذه المعطيات واكبت الإنسان منذ البدء. وأعظمُ المعالم الأثرية من الأزمنة الغابرة والحالية تعود في أكثريتها الساحقة إلى البعد الماورائي–الإيماني في وعي الإنسان لسرِ حياته وصيرورتها عبر استحقاق الموت. ويحضُرني هنا ما ذهب إليه عالمُ الرياضيات والمنطق والفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين (Ludwig Wittgenstein)، بقوله إن الإيمانَ بالله إنّما هو نتيجةٌ مباشرة لهزيمة العلم.

في فلسفة أوغست كونط (Auguste Comte)، نقع على مقاربة مختلفة لظاهرة الدين. فهو يرى، في المسيرة التطورية للبشرية، ثلاث حقبات؛ أولاً الحقبة اللاهوتية، حيث يفسّر الفكر كلّ شيء بشكل خيالي وخارق مشركاً في بادئ الأمر الآلهة ثم الإله الأحد في مجرى أحداث الوجود وترابطها وهدفيتها. ثانياً: الحقبة الماورائية، حيث تحل المفاهيم المجردة محلّ القوى الفائقة الطبيعة. ثالثاً: الحقبة الوضعية، حيث يتخلى الإنسان عن التنقيب عن العلل الأساسية وجوهر الأشياء ويكتفي بكشف القوانين التي تتحكم في الأحداث عبر المشاهدة والتحليل. نستخلص مما سبق أن الدين والتدين والإيمان والفكر الماورائي إنما هي،

وفق فلسفة أوغست كونط الوضعية، مرحلة عابرة ليس إلاَّ في مسار الإنضاج الذي ينخرط فيه الفكرُ البشري ويتجاوزه نهائياً ليقيم بشكل ثابت ودائم في استضافة العلم والتكنولوجيا.

هذه المقاربة دحضها في القرن العشرين مؤرخُ الأديان الشهير ميرسيا إيلياد (Mircea Eliade) الذي توصل بعد تحاليله المعمقة لمفهوم الدين في تاريخ الإنسان، إلى إثبات الأمر التالي: إنّ البعدَ الماورائي المتمظهرَ في ما نعتبرُهُ مقدساً هو من المكونات الأساسية لتفكير الإنسان ووجدانه:

"بالنسبة إلى مؤرخ الأديان، [...] إنّ كلّ طقس، وكل ميثةٍ، وكلّ معتقد وأيّ رمز إلهي، يعكس اختبارَنا لما هو مقدّس [...]. إنّ وعينا لعالم موجود فعلياً وذي مدلول يرتبط ارتباطاً وثيقاً باكتشاف ما نعتبره مقدّساً. عبر اختبارنا لما هو مقدّس أدرك فكرنا الإنساني التباين بين ما ينكشف ككائن موجودٍ فعلياً، زاخر بالقوّة والغنى الوجودي والمدلولات وبين ما هو مجرّد من هذه الخصائص، أي بتعبير آخر، ما هو دفق الأشياء في سياق فوضوي وخطير، عبر ظهورها واندثارها العرضي والمجوّف في مضامينه. بوجيز الكلام، إنّ ما هو مقدّس إنّما هو عنصر في بنية الضمير والوعي وليس محطّة عابرة في تاريخ نموّ هذا الضمير وهذا الوعي. وإذا أخذنا الثقافة في طياتها الأكثر قدماً وبدائيةً، لرأينا أن فعل الوجود للكائن البشري هو في حدّ ذاته فعلٌ ديني، لأنّ الطعام والحياة الجنسيّة والعمل، كلّها أعمال تكتسي طابعاً طقوسياً. وبتعبير آخر إنّ وجود الإنسان أو بالأحرى صيرورته إن هي إلاّ فعل ديني" (*Histoire des croyances et des idées religieuses*, 1, *De l'âge de la pierre aux mystères d'Eleusis*, Payot, Paris, 1976, p. 7).

وفي السياق التفحّصي ذاته، تبيّن المحلّلة النفسانيّة جوليا كريستيفا (Julia Kristeva)، المولودة في بلغاريا والمقيمة في فرنسا منذ ١٩٦٦، والأستاذة في العديد من الجامعات الفرنسيّة والأميركيّة، مدى مساهمة الإيمان في صياغة عناصر شخصيّة الكائن البشري. وفي إحدى محاوراتها القيّمة تتساءل بجرأة وموضوعيّة قائلة:

"أليس مستغرباً أن تكون مجتمعاتُنا المعلمَنة قد أَهملت الإهتمامَ بحاجة الإنسان المذهلة إلى الإيمان؟ [...] إنّ الإصغاء التحليلي يكتفي بفتح آفاق لملاحظات وتنظيرات، إلى كونها تُسهّل استيعاباً أعمق للمكوّنات النفسيّة، تُظهر إلى أيّ مدىً تدخلُ الحاجةُ إلى الإيمان في صُلب تكوين الفرد الناطق، داخل

العلمنة ذاتها بدون أي ريب، وذلك قبل أيّ تأسيس ديني بالمعنى الحصري للكلمة. إنّ المسألة لأشبه بورشة عمل لا تزال حتى الساعة في خطوطها الأولية، وعلينا، بالتالي، تقعُ مسؤوليةُ مواصلة البناء. إذ إنّني على ثقة أنّه إذا تعاملنا بجديّة مع هذه الحاجة إلى الإيمان، السابقة لمرحلة التديّن، قد نتمكّنُ بشكل أفضل، ليس فقط من مواجهة الانحرافات الأصوليّة للأديان، في الماضي وحتى يومنا الحاضر، بل أيضاً من تجاوز المآزق التي تقع فيها المجتمعاتُ المعلمَنة" (Julia Kristeva, *Cet incroyable besoin de croire*, Bayard, Paris 2007, p. 39)

من هنا علينا أن نتعاطى مع الأديان لا كزبدٍ مرضي لاختلال في وظائف العقل كما استساغت تصورَه النظرياتُ الإلحادية، بل كمعطىً إنساني مغروزٍ فطرياً في جوهر الطبيعة البشرية. فالإنسان يتنفّس الماورائيات، شاء أم أبى.

هكذا تعاطى لبنان مع هذا المعطى الجوهري في طبيعة الإنسان، وترجمه فلسفة سياسية وجودية في ميثاقِ تلاقٍ حضاري بين أديان متمايزة، تتآلف اختلافا في صيغة حياتية تعترف بالآخر المغاير كشريك سياسي كامل العضوية في إدارة شؤون الوطن، مع الحفاظ المتشدد على الذاتيّات المتنوعة والمكونة للنسيج المجتمعي اللبناني. في هذا المضمار، يقول كمال الحاج: "عندما أذود عن لبنان، أكون قد ذدت عن 'قيمة'. عن نظرة شاملة في الحياة. عن تاريخ بمعناه الإنساني الأكبر"(7/ميثاق ٤٢٦).

هذا اللبنان **"القيمة"** و**"الجوهر"**(المرجع ذاته) و**"الوطن المطلق"** (٧/ ميثاق ٤٢٧)، بحسب مصطلحات كمال الحاج في فلسفة الميثاق اللبناني، كمساحة مصالحة لبشرية متآلفة في الغيرية، لم يكن يوماً، يمكنني الجزم بذلك، بلداً عادياً، وبالتالي باهتاً. وتقومُ معجزةُ استمراريّته على أنه لم يخرج قطُّ من دائرةِ المخاطر عبرَ كلِّ حقباتِ تاريخه الطويل والضارب في عُمق الزمنِ الإنساني. قدرُه أن يعيشَ في خطر، لأنه بلد الحياة. والحياة لا تنمو إلا في المخاطر (Vivre c'est risquer). ذلك أنه كان على الدوام، حتى الآن أقلّه، تلك المساحة الحرّة والفريدة لبشريّةٍ متألّمة، هاربةٍ من عذاباتِ ماضيها، تائهةٍ في حاضرٍ متقلّب وغامضٍ ومتوجّسةٍ من غدٍ قد يكون أفجع وأهول، في شرقٍ ميّال، بالرغم من تكدُّساتِ حضاراته وثقافاته وتقاطعِها الغني، إلى نوعٍ من الأحاديّة اللغويّة والدينية والسياسيّة والمجتمعيّة. من مصائب هذا الشرق الكبرى، استناداً إلى اطّلاعي الوثيق على الحركات الدينية والسياسية، منذ القرن التاسعَ عشر حتى القرن

الواحد والعشرين، أنه يتوهّم أنَّ الوحدة التي يسعى إليها كمدخلٍ إلى القوّةِ المنشودة، تولَدُ من رَحم الانصهار. وحدَهُ لبنان الذي تأنسنَ حتى المرضِ والهزال على وقعِ حُريّات الناس وتطلّعاتهم وآلامِهم وتشرّدهم، استطاع أن يُسقط، بممارسةٍ يوميّة دؤوبة وهادفة، مبدأين خطيرين، بحسب اعتقادي، الانصهارَ الذي يُستعمل حصرا للمعادن لا للبشر والتسامحَ الذي يلغي حقَّ الانسان الطبيعي في الاختلاف. هذان المبدآن يتعارضان وحقوقَ الإنسان الطبيعيّة والأساسيّة، ويتهدّدان بالتالي، باستمرار، شرقنا الذي غالباً ما ينزلقُ إلى منطقِ اختزالِ الآخر المختلف وتهميشه ثم إلغائه. إنَّ صرخة كمال الحاج "**أنا طائفي ... وسأظل** ..."(٨ /سأبقى ١)، – التي تجسد بأبهى حلةٍ بيانية وعيَ الإنسان لذاته في غيريته المنفتحة والمتفاعلة والمحترِمة لذات الآخرين، وَفق المبدأ الفلسفي، عليك أن تكون ذاتَك لكي تكون مع الآخر، ووَفق مبدأ الفرادة في مفهوم التلاقي الثقافي والحضاري الصحيح.

انطلاقاً من حقوق الإنسان الطبيعية، فالكائن البشري لا يستجدي وجوده من أحد، وبناءً على ذلك، فهو ليس بحاجة إلى تسامح الآخرين في حقه اللامنقوص في الوجود الحر وبالتالي في الاختلاف. له الحريةُ المطلقة في أن يكون كما هو يريد أن يكون، ضمن حدود احترام الآخر في الأمور عينها والمحافظة على السلم العام. هذا المنطق الذي أدى إلى قيام لبنان والميثاق اللبناني والطائفية البناءة، يجد دعما قويا في ما يسميه تشارلز تايلور (Charles Taylor)"سياسة الاختلاف"(la politique de la différence) . فهو يقول: "قبل نهاية القرن السابع عشر، لم يكن أحد يفكر بأن التمايزات بين البشر تحمل مدلولا معنويا وشخصيا. إن هناك طريقة خاصة لكي أكون كائنا بشريا، ألا وهي طريقتي أنا. إنني مدعو إلى أن أعيش حياتي بهذه الطريقة، وليس بتقليد شخص آخر". وينتهي في تحاليله إلى إطلاق مبدأ الفرادة (le principe d'originalité) الذي يجب أن يرافقَ تكوين المجتمعات الديمقراطية ويؤطّرَ سياساتها وبرامجها التنموية. وفي السياق ذاته، تشدد ماري غاي (Marie Gaille) في مؤلفها "ألمواطن"، على "أن كلَّ واحد منا إنما هو فريد من نوعه ولديه أمورٌ ما ليقولَها، ليس بمقدور أي شخص آخر أن يعلنَها. في مجتمع ديمقراطي، على الحكومة، وهي تعترف بالمساواة بين المواطنين، أن تعطي الجميع الفرص عينها لتنمية الذات الحقيقية". إن هذا الحق في الاختلاف، الذي يقوم عليه لبنان، مجتمعا ودولة وحكما، يتعارض كليا مع مفهوم التسامح.

في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ترِدُ كلمة تسامح مرةً واحدة في المادة ٢٦، الفقرة الثانية التي تعالجُ أهدافَ التربية ومنها "تعزيزُ التفاهم والتسامح والصداقة بين جميعِ الشعوب والمجموعات العنصريّة أو الدينية". ونظراً إلى المضامين الملتبسة التي ينطوي عليها هذا المصطلح، كان لزاماً على الأونسكو أن تُصدِر وثيقةً دولية تحت عنوان: "إعلان المبادئ في التسامح" في ١٦ تشرين الثاني ١٩٩٥، تُشدِّدُ فيها على أنَّ التسامح هو احترامٌ غيرُ منقوصٍ لحقوق الإنسان بكاملها.

هذا هو البُعدُ الذي سعى لبنانُ دوماً إلى عيشه، – والذي فقهه بعمق كمال الحاج في مقاربته-المرجع لفلسفة الميثاق اللبناني في الطائفية البناءة، – بإعطائه كلَّ مضطهَدٍ وكلَّ هاربٍ وكلَّ امرئٍ خائفٍ على ذاته في هذا الشرق المعلّقِ على خشبة الأحادية، بعضاً لا يستهانُ به من حقّه الإنساني في وجودٍ حرٍّ ومتفاعل.

وإذا عدنا إلى التاريخ اليوناني القديم، نرى أنَّ الإغريق طوَّروا صيغتَين متناقضتَين لإدارة مدينة البشر. كانت اسبرطة شديدةَ الحرص على تماسك أهلها وانصهارهم في بوتقةٍ واحدة؛ فطردت كلَّ غريبٍ ولم تدع في المدينة إلاّ من ثَبتت أصالةُ دمِه ودينِه وثقافتِه. وأرست حكماً عسكرياً اوليغرشياً مرهوبَ الجانب. في مقابل اسبارطة، كانت أثينا تجسّدُ صورةً معاكِسة. نظامُها ديموقراطي بفضلِ عبقريّة بريكلس. أبوابُها مشرّعةٌ أمام كلِّ عاشقٍ للمعرفة وللبحثِ عن المطلق. مدارسُها متنوّعةٌ وحرّة. عند اندلاع الحرب بين هاتين الحضارتين، كان الانتصار العسكري لعصبية اسبارطة، والهزيمةُ لأثينا الكوسموبوليتيّة والديموقراطيّة. ولكن أمام محفل التاريخ، من يذكر بعدُ أمجادَ اسبارطة العسكريّة، وعُنصريّتها واعتزازَها الفارغ بالمحافظة على نظافة عرقِها ودمِها ودينِها؟ اندثرت حضارةُ إسبارطة المجوَّفة ثقافيّاً وإنسانياً، وأثينا المهزومةُ عسكرياً خَلُدت في سجلاّت الفكر والإبداع والفلسفة والعلوم. نستخلص مما سبق أنّه كلما كانت الدولةُ حاضنةً للفروقات وراعيةً لها بشفافيّة واقتناع، كان المجتمعُ أكثر تماسكاً وأشدَّ اتّحاداً وأصلبَ استمراريّةً في الاستحقاقاتِ الحرجة. وبقدرِ ما تسعى الأنظمةُ إلى عمليّاتٍ إنصهاريّة وإلغائية للتمايزات، بقدر ما تمسُّ حقوقَ الإنسانِ الأساسيّة ونواميسَ الطبيعةِ، وتجذِّر بالتالي الهشاشة في جسدِ الوطن، فيتداعى وينهار عند كلّ اهتزازٍ قوي. وخيرُ دليلٍ على ذلك ما حدثَ في الاتّحاد السوفياتي. لا أغالي البتة إن قلت إن بيروت، في تنوّعها المثري وفي هزائمها العسكرية وانتصاراتها الثقافية، هي الوريثةُ بدون أيّ منازع لحضارة أثينا وأمجادها.

في آخر المطاف، لم يكتب كمال الحاج الفلسفة اللبنانية بقلم تحليلي، يجمع عمق المقاربة إلى رونق الأسلوب وحسب، بل كتبها أيضاً بقلبه وروحه ودمه. إنه فعلا شهيد رسولية الكيان اللبناني؛ شهيد الميثاق اللبناني والصيغة اللبنانية المتجسدة في الطائفية البناءة التي دفعت البابا يوحنا بولس الثاني إلى إعلان لبنان رسالةً للمجتمعات البشرية جمعاء؛ شهيد لبنان الواحة المميَّزة للتلاقي بين الإتنيّات والأديان والثقافات في حضارةِ المحبّة، وفي منطق قبول الآخر كجزءٍ من الذات في وحدة الإنسانيّة؛ شهيد لبنان الذي أعاد الحياة إلى "حلف الفضول" و"صحيفة المدينة"، وأرسى أكبر ديموقراطيّة توافقيّة في أصغر مساحةٍ حرّة لبشريّةٍ متصالحة مع ذاتها في الاختلاف والغيريّة والتعدّدية.

انطلاقا مما سبق، سأسعى جاهدا إلى إدخال الفلسفة اللبنانية كما أرسى مداميكَها الأولى كمال يوسف الحاج، في منظومة المقرّرات التي تشكّل التنشئة العامة في شهادة الإجازة أو البكالوريوس. وتقوم أهميّة هذا البناء الفلسفي على أنه وليد "الكائن ـ هنا". هذه الفلسفة تجذّر الطلاب في الحالة اللبنانية وفرادتها وتزوّدهم بالمعارف الضرورية لكي يتبنّوا بحماس واندفاع إستثنائية لبنان وتدفعُ بالتالي عشّاقَ الفلسفة بينهم إلى متابعة وتطوير وتأوين ما أرساه مؤسّسُ الفلسفة اللبنانية، رفداً للفكر الفلسفي العالمي.

مع إطلاق المؤتمر الأكاديمي الأول للفلسفة اللبنانية في حرم جامعة الروح القدس الكسليك، لا يسعني إلا أن أثمّن عاليا مساهمةَ الأساتذة المحاضرين، المتألقين بنجوميتهم الفكرية، والذين ينظرون إلى فلسفة الحاج كرافعة فكرية شبيهة بالروح التي خاطبت إرث أثينا الفكري، وشرّعت أبوابها لعشّاق المعرفة والبحث عن المطلق، وحضنت العقل المتوسطي القائمَ بجوهره على التعدّدية والتواصل كنموذج عابر للحدود، كما أسهمت، إلى حدٍّ غير مسبوق، في تطوير التراث الإنساني الثقافي والمعرفي والعلمي والماورائي. فتكون بذلك الفلسفةُ اللبنانية خميرةً تخصب التنوّع الفكري وتجفّف موارد الفكر الانصهاري والأحادي، نصرةً لكرامة الإنسان المشرقي وحقّهِ في فلسفة تآلف الاختلاف. واسمحوا لي هنا أن أسوق شكرا خالصا إلى البروفسورة هدى نعمة، مديرة "كرسي كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانية"، التي بمهاراتها الفكرية واندفاعاتها التحديثية، لا تألو جهدا في كشف مكنونات فلسفة الحاج وإيصالها يانعةً يافعةً إلى متذوقي الإبداعات الفكرية والبحثية.

عُشتم، وعاش بيتُ الفكر ـ أسسيةُ كمال يوسف الحاج، وعاش "كرسي كمال يوسف الحاج للفلسفة اللبنانية"، وعاشت جامعةُ الروح القدس الكسليك، وعاش لبنانُ الرسالة. وشكرا.